

الذِّكْرَى

أَقْصُوصَةٌ مِصْرِيَّةٌ
لِلْأَدِيبِ نَجِيبٍ مَحْفُوظٍ

واحد ذي ثلاث حجرات صغيرة الحجم . ولكنها كانت سفرة سعيدة ، ودواعي لذتها متوفرة من التنقل واستقبال العيد ورؤية الأهل والأحباب

ومهما يكن من أمر البيت من التفاهة والضعف فقد كان يوسف لا يبطأ بقدمه أول درجة من سلمه حتى يرفرف قلبه في

صدره ويمتلئ عيناه بالأحلام وقلبه بالحنين ، ويذكر لغوره ذلك الطفل الصغير ذا الجلباب والطاقي الذي كان يفقر على هذا السلم صاعداً هابطاً كل يوم حافي القدمين ...

أي ذكرى وأى أيام ... !

وكان كل مكان فيه يحفظ لقلبه ذكرى تمنعش النفس وتشرح الصدر سواء أكان ما تحمل نوعاً من مسرات الصبا أو لوناً من متاعبه وهمومه . وكثير من آلام الصغر التي يضيق بها الأطفال يجدونها إذا كروا إليها في الكبر متمعة ولذة وتفكها فكان لهذا يطوف بحجرات البيت حالماً منذ كراً كأنما يطوف بضريح ولي من أولياء الله ثم يستقر مدة إقامته في أعزها عليه وأحبها إلى قلبه : في الحجرة التي عاش فيها من عمره اثنين وعشرين عاماً بين عبث الطفولة وأحلام الصبا وآمال الشباب

والذي يقيم فيها الآن أخوه سامي وهو ابن عشر ويحتم في هذا العام دراسته الابتدائية . ويخيل إليه — أي إلى يوسف — كلما شاهده أنه يعيد تمثيل الحياة التي חיها مرة أخرى ، وأن الحجرة تشهد للمرة الثانية نفس فصول الرواية ولما بدأت تبسم وتسخر وتسأم ... وكان سامي يتخلى عن حجراته سعيداً مغتبطاً لأخيه الأكبر الذي ينزل من نفسه

إذا لاحت في الأفق القريب بشائر عيد الفطر

خفت وطأة رمضان على النفوس ، وهوت الفرح الموعود من جفاف شهر الصوم ، واهتزت صرامة التقشف في الصدور تحت موجة طرب آن انطلاقتها . هنالك تجمد ربوات البيوت أنفسهن في مكانة الساحر يتطلع إليهن الصغار بأعينها الحاملة هاتفة بهن أن يبدعن آيات الكعك اللذيذ وأن يخلقن من العجين كهيئة المرائس والحيوان والطير

أما جماعة الموظفين الذين تقضى عليهم أشغالهم بالتغرب في أقاصى القطر فلا يشغلهم في تلك الأيام مثل إعداد الحفائب والتأهب للسفر إلى بلدانهم حيث يسمعون بالعيد بين أهلهم وحيث تتحقق للأطفال ولهم أحلامهم

وكان من هؤلاء الأستاذ يوسف زينهم المدرس بمدرسة أسبوط الثانوية وأسرته المكونة من زوجته وابنتيه الصغيرتين ؛ فما أتى يوم الوقفة حتى كان الأستاذ وأسرته في القاهرة بل في القاهرة المعزية حيث يقع بيت المرحوم والده في (الدراسة) قريباً من مسجد الحسين . وكان البيت من البيوت القديمة باهت الجدران رث الهيئة ، يصعد إليه الصاعد على سلم ضيق متهدم الدرجات بغير درابزين ، حلزوني الشكل كسلم المآذن . ويتكون البيت من طابق

على رأسه الأحلام . وسرعان ما كرت نفسه راجعة
عشرين عاماً في خط الزمن غير المتناهي ، وذكر عهد
هذه الحجرة أيام كانت رفيقة صباه وشبابه وشريكه
أحلامه وأهوائه وشاهدة أفراحه وأحزانه ومستسرة
خباياه ومراجع نجواه . ربه ... إنه ليدير عينيه في
أنحائها طمعاً أن ينفذ إلى تضاعيف جوها الخفي
ويقرأ ما خط من حياته وما سجل من نوازع قلبه
وعقله ووجدانه ... ولقد تأنى عليه أوقات بغمرة
تيار الحياة وتكتنفه متاعبها فينسى ذكريات الماضي
في هموم الحاضر ويخيل إليه أن ذاك الصبي الذي عاش
وفرح وتأمل وأمل ويئس شخص غريب عنه
لا تربطه به رابطة ألم أو أمل . وقد تأنى عليه ساعات
آخر يشوب فيها إلى نفسه فينسى حاضره هارعاً إلى
الماضي البعيد ؛ وتقدم إليه حافظته الثائرة أزاهر
الذكريات واحدة فواحدة حتى يخال أنه لم يعبر
الماضي إلا منذ ساعات قلائل وأنه لم يبحي إلا به وله
وها هو ذا الآن تنشأ ساعة من تلك الساعات
الحالة فتخلق روحه في آفاق بعيدة كالذاهل في غيوبة
مفناطيسية ، وتتدفق عليه الصور الحاملة في غير ترتيب
زمانى ، فيذكر كيف كان يستيقظ - في نفس
الحجرة - عند الفجر ، ويدلف إلى النافذة يشاهد
بهاء الفجر المشتمل السكون بثوبه الأزرق والنجوم
من فيض الحياة بها تنكاد أن تتكلم بأحداث الأزل ،
ويرى البيوت كالأشباح النائمة ، ومئذنة سيدنا الحسين
في المكان الأوسط منها كالحارس الحفيظ ؛ ويستمع
إلى صياح الديكة المنتشية ببشائر النور وقطر الندى
حتى يشق الفضاء صوت المؤذن داعياً «الله أكبر»
فيهبط على القلوب هبوط الصحة والطمانينة فيملأها
نشوة وبهجة وحنيناً ، ثم يصلى الفجر فإذا انتهى

منزلة الأب ويتولى من بعده جميع أموره ويتمهده
بالتربية والمحبة

وقد لاحظ يوسف أن أخاه غيّر من نظام
الحجرة ، وأنه نقل الكتب القديم إلى غير موضعه
الأصلي وكان يحب أن تبقى الحجرة محتفظة بصورتها
القديمة ، فسأله عن هذا ، وأجابه الغلام :

- إني جعلت المكتب بحيث إذا جلست
للذاكرة جاء نور النافذة من الجهة اليسرى كما
أوصانا مدرس علم الصحة
فابتسم يوسف وقال :

« ما أسعد حظكم يا تلاميذ اليوم فإن لكم من
مدرسيكم آباء رحماء يودون لكم الصحة والعافية
ويشفقون عليكم من الأذى ؛ أما على أيامنا فكان
الحال غير الحال والمدرسون غير المدرسين . وإني
لأذكر العنت الذي كان يصيبنا - في نفس مدرستك
خليل أغا - وما كانوا يلزموننا من حفظ البلدان
والثغور والجزر والحاصلات . وكم من مرة مددنا
على الأرض وألهبت العصي القاسية ظهورنا وبطون
أقدامنا ... تلك أيام خلت ... أما أيامكم ... »

ثم استلقى الأستاذ على كنبه واستسلم لتيار
التذكر المذبذبة التسلسل تاركاً زوجته وأمه تتحدثان
ما شاء لهما الحديث ، وسامياً يجالس ميمى وفيقى
الصغيرتين ويلاعبهما

ولم تنس أمه أن تأنى بمدفأة وتضمها في ركن
من الحجرة لأن الشهر كان ديسمبر والجو شديد
البرودة يزيد من شدة قساوته الصيام ؛ وكأن السماء
أشفقت من البرد فتلفعت بأردية من السحب -
أضاء بعضها عن لون أبيض ناصع بهيج وأظلم
البعض عن كتمل دكناء كالجبال عند الغروب ،
فانكمش جسده ، وتحفزت روحه للوثوب وحلقت

كيف شاءت المصادفة أن تنبه ابنته إليها ساعة
تهم روحه في سماوات عهدها الحلو المنطوى فكأنما
سخرت الصورة الطفلة الصغيرة لتذكير أبيها الغافل
قال سامي :

— لاشك أنك أنت يا أخي الذي رسمتها فأنت
صاحب الحجرة القديم ، وأنت الذي تستطيع أن
تجيد الرسم ...
وقالت ميمي مرة أخرى :

— بابا ... اشتر لي عروسة مثلها
ودلف يوسف إلى قريب من الصورة وتأملها
بعين لو رأت زوجه نظرتها الشوقة لسأت باهتمام
عن الصورة وتاريخ رسمها وأجرت في ذاك تحقيقاً
عسيراً ، وكان ما يبقى منها ظلاً خفيفاً طمست منه
بعض معالم الوجه ، ولكن بقي منها محافظاً على
وضوحه مفرق الشعر الغزير المرسل في عبث فتان ،
وما يبين عن جمال الأنف الصغير الدقيق . فالشكر لله
إنه كان يجيد الرسم منذ الصغر ، وإلى جانب الصورة
كانت مكتوبة هذه الآيات :

أفوق قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ
سهوى واستمرت بالرجال المرائر
زع النفس واستبق الحياء فأنما
تباعد أو تدنى الباب المقادر
أمت حبها واجعل قديم وصالحها
وعشرتها مثل آلى لا تماشر
وهبها كشيء لم يكن أو كتنازح

به الدار أو من غيبته المقابر
إن للصورة والشعر قصة قديمة كانت حياة
قلب ناشئ ، اضطرع من جرائها فيه الأمل والألم ،
وتيقظت بسببها عواطف شتى وغرائز نائمة ، وإن
عفت آثار تلك الحياة من قلبه الآن كأنما فاضت من

أشعل الصباح وقعد يذاكر ويحل تمرينات الحساب
ومسائل الهندسة

وإنه ليدكر لهذه المناسبة عهد التلمذة الغريب ،
الذي كان يرسف في أغلاله كالسجين أو الأسير
المعذب ، يجهد عبثاً أن يقوم بما يفرضه عليه البرنامج
الثقيل المرهق ، وتضطرب أعصابه خوفاً ورعباً من
المدرسين وعصيمهم الذين كان يكفي تذكركم لتجميد
الدم في العروق أو قطع الأنفاس في الصدور . ولا
عجب فقد كانت القسوة هي السياسة الرسومة لتربية
التلاميذ ، وكان يظن أنها الطريقة المثلى لخلق الرجال
الفضلاء ، فكان عهد التلمذة عهد رعب وإرهاب وعنت .
وإنه إذا جازله الآن أن يشبه المعلم بالفنان يحاول أن
يبدع من مادته أجل الآيات وأتمتها فلا يستطيع
أن يشبه مدرسيه القدماء إلا بمحصلي الضرائب
الأثراك ... ولكنه بالرغم من هذا لا يذكر ذاك
العهد حتى يملوه الابتسام ويغمزه الفرح كأن مافيه
من مسرة فهو له وما فيه من ألم فهو لغيره ؛ يراه كإحدى
المشاهد الرواية التمثيلية الحزينة فيتمتع بأثرها الجميل
وفيما هو ساجح في بحر أحلامه انتبه فجأة على
يد ابنته الصغرى ميمي وهي تهزه ، فالتفت إليها متبرماً
وصاح بها منتهراً :

« إيه يا بنت ؟ ... »

فسألته بصوتها الرفيع المتقطع وهي تشير إلى
حائط الحجرة :

« هل حقاً أنت الذي رسمت هذه الصورة يا بابا ؟ »
وتتبع ناظره بإصبعها إلى هدفها من الحائط في
المكان الذي كان يشغله المكتب قبل أن ينقله سامي
فرأى صورة طفلة صغيرة في نصف الحجم الطبيعي
سرعان ما تذكرها عقله وقلبه ، وذكر بعض الظروف
التي دفعت به إلى رسمها منذ عشرات السنين ... وعجب

وإخوته كلما جاء أو ذهب يمكن أن ينادى بمثل هذا النداء الذى يخاطب به باعة الفول السودانى « وغزل البنات » ... ولكنه ما لبث أن اعتادته مسامحه وألفته نفسه ، وطفق يدرك شيئاً فشيئاً مكانة والده من القصر العظيم وتبين البون الشاسع الذى يفصل بين واحد مثله وبين أهل ذلك القصر الذين لا يدري على أى وجه من الحياة يعيشون خلف تلك الجدران الهائلة

وهو لا يكاد يذكر تاريخ أول لقاء على وجه التحديد ، ولكنه يرجح أنه وقع لأول عهده بزيارة قصر سليم بك وهو فى الثانية عشرة من عمره . وكان مطمئناً إلى مكانه المختار من المطبخ وفى يده قطعة (البقلاوة) ، وعلى حين فجأة دخلت إلى المكان طفلة فى مثل عمره لم ير مثلها من قبل ، كانت مستديرة الوجه ، مليحة القسما ، خمرة اللون ، رشيقة القامة ، ينتثر شعرها الأسود الحالك خصلات على كتفها وبلدتى وسط الرأس فى (فيونكه) حمراء ، ثم تنزل منه شعرات رفيعة مستقيمة على الجبين كذاذ النافورة ، وترتدى فستاناً أبيض شفافاً ذا منطقة حمراء يكشف عن ركبتيها الصغيرتين ، فأناره منظرها ، وجدت عيناه عليها فى إعجاب ورهبة بمد أن أخفت يده بحركة غريزية قطعة (البقلاوة) وانتبه أبوه إليها فأنحنى باحترام وهو يقول مبتسماً .

— أهلاً وسهلاً بسوسن هانم
ولاحظ الرجل أنها تنظر إلى ابنه نظرة غريبة
فقال يقدمه إليها :

— هذا خادمك يوسف ... إبنى
فدارت عيناهما الجملتان بينه وبين أبيه فى صمت وسكون ثم ولت مسرعة فى خفة أخاذه ، وأسرع يوسف وراءها زحفاً على يديه وقدميه كالضفدع ،

غير منبته واصطنعت فى غير ميدانه . وإنه لن المؤلم المضحك أن يكون الحائط الحجرى أحفظ للود وأرحمى للذكريات الجميلة من قلب الانسان العاقل .. وإن تلك الصورة وهذه الأبيات الشعرية لتذكره بأجل ما وهبت حياته المنطوية بل لأجل ما تهب الحياة لبنها ؛ تذكره بوم الحب الطاهر ، الحب الذى يفيض من قلب طاهر لم تمركه التجارب ، ويخفي أغراضه المرسومة منذ الأزل خلف وجه ملاك سام ، ويخفي أنات الأرض وراء لحن سماوى ساحر ، ويفشى على الطين ستاراً كثيفاً من السحاب الأبيض الجميل

نعم لا يكاد يذكر التفاصيل ولا يحضره الترتيب الزمانى ، ولكن تندلع فى قلبه ألسنة من الذهب بين الحين والحين فيكشف نورها المتقطع عن صور غريزة فاتنة من الماضى

كان المرحوم والده طاهى الوجه سليم بك عامر — من سراة القاهرة وأعيانها المبرزين — وكان يوسف يتردد عليه أحياناً كثيرة ، وما يزال يذكر القصر العامر بمحديقته الغناء وجدرانه الشاهقة وأبوابه المالية ونوافذه ذات الستائر المختلفة الألوان ، كما يذكر البناء الصغير المنزل فى ركن من الحديقة ذا المدخنة الطويلة حيث كان يباشر أبوه عمله . وكان إذا زار أباه يجلس فى ركن من المطبخ يشاهد عملية الطهى الغريبة ، وفن تحويل الخضروات والطماطم والطيور إلى أصناف شهية بهيجة اللون لذيذة الطعم وبلتهم ما يمتطيه من اللحم والحلوى ويسمع فى دهشة الخدم وهم ينادون أباه بقولهم « ياعم زينهم » وما كان يظن أن شخصاً كوالده العظيم الذى يمتلى قلبه رهبة منه والذى تقف له أمه

التي هي أمضى سلاح في يد الحياة ... واقتطفت
ذاكرته صورة أخرى من الماضي الجليل لا يحسن
معرفة موقعها من حوادث تلك الأيام ، ولكنه يذكر
جيداً أنه بعد اللقاء الأول غير مجلسه من الطبخ
إلى مكان قريب من الباب ، بحيث يستطيع أن
يشاهد منه الحديقة طمعاً أن يرى العروسة الصغيرة
التي استبدت بأحلامه وأمانيه ، وإنه كان يراها في
صحبة أخوين لها في مثل عمرها يركبون الدراجة
أو يلعبون « بالبي » أو يستبقون في ممرات الحديقة
الرملية !

في جولة من جولاتهم عثروا به ، فلفت منظره
الغريب أنظارهم وتساءل عنه الصغيران فأجابتهما
سوسن بأنه « ابن عم زينهم » فدنا منه وأنعموا
فيه النظر : في جلبابه الباهت ، وطاقيته السوداء ،
وقبائه الصغير ، فجفل قلبه وهم أن يولى فراراً لولا
أن صاحبت به سوسن بصوتها المذب :
— لا تخف ... ولتبق حيث أنت فلن

يؤذيك أحد

وسأله أحد الصبيين : وقد نسي اسميهما :

— هل أنت ابن عم زينهم ؟ ...

فأحني يوسف رأسه أن نعم . فسأله الثاني
وعلى فنه ابتسامة :

— هل أنت تلميذ ؟ ...

فأحني رأسه مرة أخرى أن نعم ، مما أثار دهشة
بين الثلاثة ، فسأله الأول :

— وما مدرستك ؟ ...

— خليل أغا

— في سنه إيه ؟ ...

— في السنة الرابعة

ثم سكت يوسف لحظة يغالب رغبة في الحديث

فلما بلغ باب المطبخ أرسل بناظره خلفها يشاهدها
وهي تجري في الحديقة حتى أخفتها عن عينيه
طرقاتها اللتوية . إنه يذكر هذا المنظر على توغله في
الماضي كأنما لمس حواسه بالأمس القريب ، ولا ينسى
كيف أنه أيقظ نفسه وقلبه وخياله وبذل موتها
حياة حارة وركودها ثورة هائجة . فلما أن رجع
إلى البيت ووجد — ربما حيث يرقد الآن —
استحضر صورتها وخلا إليها واستغرق في حسنها
وبهائها ... أي حسن وأي بهاء ... رياه ... هل
تحوى الدنيا مثل هذه الفتنة وهذه النظافة ...
لقد عاش من جنسها كثيرات ، منهن أمه وأربع
أخوات — تفرقن الآن في بيوت أزواجهن —
شتان ما بينها وبينهن ، إسن من طين وهي نور ،
وما كان يظن أن لها لهما ودماً كاحمهن ودمهن ،
أو أن يكون بداخلها معدة وأمعاء كبقية الإنس ،
فنزهاها عن هذا وعن غيره ، ونزلت من نفسه منزلة
الملائكة في نفوس العابدين ...

وكان يوسف رقيق العواطف متوثب الخيال
دقيق الحس كجميع هواة الرسم والفنون ، وكانت
غريزته ما تزال راقدة في سباتها الذي فطرها الله
عليها فدبت فيها الحياة بعد أن نفخت فيها صورة
سوسن من روحها المذب ، وغاب عنه حينذاك أنه
يمثل فصلاً من رواية تكررت مشاهدتها آلاف
السنين ، وأنه يقع في الأجبولة المنصوبة منذ الأزل
لبني الإنسان ، فظن أنه يكشف عالماً روحياً جديداً
بطير إليه على جناحي الحب . إنه يذكر هذا الآن
فيتعجب لهذا الحب الغريب ، الحب الذي هو فلسفة
الشباب الشاملة ، والذي يتسامى إلى معارج التصوف
والتجلى وينحط إلى مهاوي القسوة والأنانية
والفدارة وتكن خلف جميع أوجه تلك الغريرة

حتى غلبته ، فسأل الأخوين قائلاً :

— وما مدرستكما ؟ ...

— الناصرية

— ولم لم تدخل خليل أغا وهي قرية من

البيت ؟ ...

فبدت في عيني الشقيقتين نظرة إنكار وقال

أكبرهما :

— الناصرية هي مدرسة الأغنياء ؟ وقال الآخر

وكان أشد صلفاً :

— أما خليل أغا فهي مدرسة الفقراء

وقالت سوسن :

— ماذا يهم بمد المدرسة إذا كانا يذهبان

إليها في السيارة ! ...

فردد يوسف عنييه بينهما وقد غلب على أمره

واستخذي خجلاً ومهانة ، وكرهت نفسه الهزيمة

فقال بدون داع ولا مناسبة وبصوت يدل على التحدى :

— أنا أول فرقتي ... وأجيد الرسم إجابة

فائقة ... إلى بورقة وقلم ! ...

فنظر إليه الأخ الأكبر بمين الهزء وأخرج

من جيب بنطلونه ورقة وقلماً وقال له :

— إليك ما تريد ...

وزاد اهتمام سوسن فاقتربت خطوة منه وقالت :

— إن كنت شاطرأ حقاً فارسم كلباً

فبسط الصبي الورقة أمامه بثقة واطمئنان وجرت

يده بالقلم في ثبات وخفة ومهارة فصورت كلباً

لا بأس به . ولما انتهى منه نظر إليهم نظرة فوز

وظفر ، ونظر إليه الأخوان باحتقار وغيظ ، أما

سوسن فقالت وعلى فيها ابتسامة رقيقة :

— الكلب موضوع سهل ... إن كنت

شاطرأ حقاً فارسم أوزة ...

ولكنه لم يقهر أيضاً وذاق لذة الفوز مرة

أخرى ، فقال الأخ الأصغر :

— الرسم مادة تافهة

— ولكني الأول في جميع المعلوم ...

— وهذا أمر تافه ...

فقال يوسف بحدة :

— إذا فما المهم ؟

فوضع الصبي الآخر يديه في جيب البنطلون

وقال وهو ينظر إليه من عل :

— المهم أن تكون ابن بك ... وأن يكون

لك مثل هذا القصر ...

وولّوه ظهورهم وذهبوا

هذا ما يذكره من تلك المناظرة الصبيانية ، ويدكر

فوق هذا أنه عاد إلى بيته ذاك اليوم ينتفض من

الغضب والحقد ويمتلئ كراهية للصبيين . أما سوسن

فلم يكره منها قولاً أو فعلاً إذ كانت حبيبة عزيزة

جميلة وكان حبيباً عزيزاً جميلاً كل ما تقول أو تفعل .

وكان مستعداً في أعماقه أن يكره الخير ويحتقره

إن وجد منها كرهاً له أو احتقاراً ، وأن يحب الشر

ويعظمه إن آنس منها له حباً أو تعظيماً ، إذ كانت

تنبؤاً من نفسه مكانة المثل الأعلى في كل شيء ، فالخير

خير بالإضافة لأفهامها ، والجميل جميل على قدر مشابهته

لصورتها

إنه يذكر تلك اللوحة الهيامية كالاستغنى الذي

يتذكر فعاله حين السكر الشديد ولم يتصل الحديث

بينه وبين الأخوين بعد تلك المعركة الكلامية ، ولم

يرها إلا قليلاً ، وكانا إذا مرا به مرا مقتحمين كأنهما

لا يرانه ، أما سوسن فكان يراها كثيراً ، ولم تكن

متكبرة قاسية كأخويها فكانت إذا التقت عيناها

تحفظ شيئاً من قواعدها ، ومدرسها رجل ثقيل الدم
يضع على رأسه عمامة مضحكة ...

فاضطرب وصعد الدم إلى وجهه وذكر طاقيته
السوداء وما عسى أن تقول عنها ، ثم قال :

— كثيرون يؤثرون العمامة على غيرها

— هي في نظري على كل حال مضحكة ...

ثم إن هذا الشيخ قذر ... لمحت مرة يده فראيت
أظافره سوداء كالطين

وهنا قبض يديه وود لو يخفيهما

ومن ذاك اليوم كان إذا نوى الذهاب إلى
القصر قص أظافره وخلع طاقيته ولبس الحذاء

بدلاً من القبقاب . ومضت الأيام وهو على تلك
الحال ، ينو بالنظر ، ويسعد بالحديث الذي لا يحس

المهوى ، ويماني حباً مكتوماً ينمو يوماً بعد يوم .
وكانت سوسن تستأثر بحياته جميعها ، الظاهرة

والباطنة ، اليقظة والغافلة ، فكانت مثار أحلامه
حين العمل وحين اللعب ، ولدى اللقاء ولدى الغياب

وأوقات الفرح وأوقات الحزن وعند الصحة وعند
المرض ، وكانت آخر فكر مودع عند النوم ، وأول

خاطر مرحب عند الاستيقاظ . وكان حبه طاهراً
سامياً ارتفع به من العالم الصاخب إلى حيث يطلع

على العالمين كما تطلع الآلهة على المخلوقات ، إلا أنه
لم يخل من الألم واليأس ، بل الحقيقة أن الألم واليأس

كانا من مقوماته الأولية لأنه لم يغفل لحظة عما
يفرق بين طبقتيهما ، ولم ينس الحقيقة المرة التي جعلت

أباه يقدمه لسوسن فيقول : « هذا خادمك يوسف »
فهو خادمها ما في ذلك من شك ، وهو وأهله من

المحسوبين عليها والعائشين على فئات مائدتها
حقاً إن الحب من دوافع النشاط والاجتهاد

والتطلع إلى المجد ولكنه شك في قدرة الحب على

بميينه ابتسمت إليه أو بادلته كلمة تافهة كانت لديه
ألد من الصحة والعافية

وكان مرة جالساً القرفصاء وكانت تلعب في
الحديقة على بعد قريب منه ، قافزة على جبل تديره

خادمتان من طرفيه ، فلبث يراقبها بميينين مشتاقتين
وبعد قفزاتها على دقات قلبه الولهان . وحدث أن

ذهبت إحدى الخادمتين لبعض الشئون ، فنادته أن
يحمل محل الخادمة ، ولبي مسرعاً سعيداً مقتبلاً ظافراً

وود من قلبه لو لم تلتفه تلك الساعة السعيدة أبداً ،
ولكن الصغيرة تعبت فتوقفت تستريح ، وخشى

يوسف أن تنتهي سعادته ويعود إلى مكانه وكان
شديد الرغبة في أن يحدثها وأن يستمع إلى صوتها

العذب الذي يفعل به فعل التمويذة بالسحور فسألها :
— هل تذهبين إلى المدرسة ؟

وكان يخشى ألا تنازل وترد عليه ولكنه
سمعها تقول :

— نعم ...

— أي مدرسة ؟

— لا ميرديديه

— إنه اسم غريب

فافتقر ثغرها عن ابتسامة ظريفة يرى وميضها
الآن منيراً في ظلام السنين النطوية وقالت :

— إنها مدرسة فرنسية

— ألا تتعلمين اللغة العربية ؟

فصربت بقدميها الأرض وقالت :

— بلى ... يدرسها لنا شيخ ... هي ثقيلة

كريمة ... هل تحبها أنت ؟

— إنني أذاكرها برغم صعوبتها وأحفظ النحو

حفظاً جيداً ... وأحب الشعر ... لماذا تكرهينها ؟

— هي ثقيلة جداً ، ولما تستطيع ذاكرتي أن

للحديث فسألها :

— ما هذه الكراسية ؟

— كراسية العربي ...

— دائماً العربي ... العربي ...

فتنهت وقالت :

— أعوذ بالله من هذه اللغة ... أتعلم أنه

لا يكدرني في الدنيا شيء إلا هم حفظها ...

فلا الفرنسي ولا الحساب ولا التاريخ بالعلوم التي

تمجزني ، فجميعها كوم والعربي كوم ...

ثم فتحت الكراسية وأنشأت تقلب في صفحاتها

وهي تقول :

— أملى علينا الشيخ سؤالاً صعباً ...

— ما هو ؟ ...

فكان جوابها أن طلبت إليه أن يتبعها إلى أريكة

في بعض منحنيات الحديقة ثم جلسا جنباً إلى جنب

لأول مرة وقرأت السؤال قائلة :

— اشرح ما يأتي وأعرب ما تحته خط :

أشوقاً ولما يحض لي غير ليلة

فكيف إذا خب المطي بنا عشرا

وظن يوسف أن السؤال غاية في السهولة وأن

في استطاعته أن يجيب عليه في غمضة عين فقال :

— إنه سؤال بسيط وهذا البيت موجود بنصه

في كتاب قواعد اللغة ...

فهزت كتفها استهانة وقالت :

— لا علم لي بكتاب قواعد لغتك هذا ... أما

ما يهمني فهو أن تملّي عليّ على مهل الاعراب

والشرح ...

ثم استعدت للكتابة ... فاعتدل في جلسته

وقطب جبينه استحضاراً لفكره الشارد ثم أنشأ

يقول :

خلق معجزة عظيمة مثل ربط آنسة جميلة كسوسن

بأبن خادمتها البائس يوسف بن زينهم ...

كانت تلك الأفكار السوداء تعصر قلبه عصراً

وتسكب السم في دمه والمرارة في ريقه ، وبلغ به

الحزن أنه كان يرمى أباه أحياناً بنظرات الغضب

والسخط لأنه كان القضاء الذي حكم عليه بالضمة

وأنزله حيث هو من الدل والهوان ...

ولكن كانت تسمه السعادة في لحظات أخرى

فيسأل نفسه : لم ترضي بالحديث ممي ؟ لم تداعبني

وتسألني ؟ لماذا لا تتعالى عن مصاحبتي ؟ لماذا تبسم

في وجهي تلك الابتسامة المشرقة التي تقتل اليأس

وتهلك الأحزان ؟ أليست هي على كل حال إنسانة

قبل أن تكون سوسن ربيبة المجد والشرف ؟ أليست

تخضع لسنن الحياة المستبدة الغامضة التي لا تميز بين

كبير وصغير ؟

ويغريه بالأمل أنه الصبي الوحيد الغريب الذي

تراه مرات في الأسبوع وأنه وسيم الطلعة جميل

القصبات على رغم فقره وضعته ...

ولكن هذه اللحظات السريعة كانت تمر به

مرور النشوة بالسكران وتتركه سريعاً إلى الحقائق

المحزنة . وهكذا فأغلب ما يذكر عن تلك الفترة كان

خليطاً من الهيام والتسامي والألم واليأس ولحظات

قصيرة من السعادة والطمأنينة ، وإلى جانب هذه تبرز

له من غياهب الماضي واقعة مسلّية يذكرها بتفاصيلها

جميعاً ، وكان في السنة الأولى أو الثانية من المدارس

الثانوية ويبلغ الخامسة عشرة من عمره على وجه

التقريب ، وكان ينتظر مقدمها في مكانه المجهود إذ

جاءته وعلى فيها الابتسامة الملائكية وفي يدها كراسية

تقبضها وتبسطها في ارتباك ظاهر فأقبل نحوها

منتشياً بالفرح والبهجة وكأنه أراد أن يخلق أسباباً

— لمن قيل هذا البيت ؟.

وكان قد سرى عنه الهم سماع صوتها وصحكتها وقال:

الذى يفهم أن الشاعر يخاطب حبيبته

وكانت هذه أول مرة يجري بينهما فيها ذكر

لأحدى اشتغالات الحب ، فنظر إليها مرتبكا وهاله

أن يرى حمرة في خديها وارتبكا كما في عينها ...

لم ؟ ... لم ؟ ...

وكانت الابتسامة ما تزال متعلقة بشفتيها الجميلتين

المفترتين عن در نصيد ، وخصلات شعرها مبعثرة

على الجبين والخدين كلما هب النسيم حملها من حسن

إلى حسن ، فنسى الوجود ، وما عاد يرى الأشجار

والأزهار ولا يحس بهبات النسيم ولا يشعر بهمومه

وتأنيب ضميره ، وما عاد يذكر من هو ولا من هي ،

واستقر وجدانه في هالة من النور تشع من وجهها

الجميل ، فأنعم فيها نظراً وهياماً

ولم تقو على نظراته فأسبلت جفونها وتدفق الدم

إلى خديها كأن تلك الكلمة الساحرة التي أفلتت

من لسانه عن غير قصد أروتها فأنبئت هاتين الوردتين ،

فلمح بها الهيام . واستثاره ما تدل عليه هيئتها من

الاستسلام قال بهامته حتى مس جبينه خصلة من

شعرها وأسكره أريج أنفاسها ... وتردد لحظة ...

ثم ثم فاها ... وعلى حين فجأة انتفضت الصبية في

جلستها كمن يستيقظ على ضربة في أم رأسه ، وقد

اتسعت عيناها ، وصرخت فيهما الدهشة والدعر ،

ثم انتصبت واقفة وفرت هاربة ...

رباه ... ما الذى أفزعها ... ولماذا فرت على

تلك الحال ؟ وما عسى أن تفعل بعد ذلك ؟

وامتلاً قلبه رعباً فقام من فوره واندفع جارباً

في اضطراب شديد إلى باب القصر ثم ترك قدميه

للريخ ، لا يلوى على شيء ، حتى انتهى إلى حجرته

لما حرف جزم ... ويمض فعل مضارع مجزوم

بها وعلامة جزمه حذف آخره ...

ثم سكنت لحظة يختار ديباجة الشرح ، ثم استطرد:

أشوقاً ولما يمض لى غير ليلة ... يقول الشاعر:

أشتاق ولم يمض لى غير ليلة على الفراق ...

واضطرب إلى قطع الشرح لأنه اكتشف فجأة أنه

يجهل معنى خبّ والمطى : فنأدى ذاكرته ولكنها

لم تسعفه ، فاضطرب وارتبك واشتد به الخجل وكاد

الدم يتفجر من خديه . ولحظت سوسن صمته

واضطرابه فسألته وقد قل صبرها :

— والشطر الثانى ؟ ...

فاشتد به الاضطراب والارتباك والخجل ،

وأشفق من أن يفقد مفخرته الوحيدة في الدنيا وهي

ما يزعم من التفوق على الأقران ، فأثر الكذب

والتحايل على التسليم بالجهل فقال :

— خبّ بمعنى طال ... والمطى هو الفراق ..

فمعنى الشطر كله فكيف إذا طال الفراق عشر ليال

لا ليلة واحدة ؟

وأغلقت سوسن الكراسى في ارتياح وطمأنينة

ونظرت إليه ممتنة شاكرة ، فأغضى أمام نظراتها

الساحرة خجلاً وخزياً ، متألم الضمير من

تضليله لها وعبه بثقتها فيه ، وذكر في رعب

مفاجأتها المتوقعة أمام الشيخ حين يشطب بقلمه

الأحمر على شرح الشطر الثانى ... فاعسى أن يكون

رأيها فيه أو شعورها نحوه ؟ ...

وكاد يفرق في أفكاره لولا أن سمعها تقول

بصوت هادئ عذب :

أشتاق ولم يمض لى غير ليلة

فكيف إذا طال الفراق عشراً

ثم ضحكت وسألته :

القبلة وذاك الرضا لم تمد تقابله في علانية وسذاجة ، بل اقتصر التبادل الروحي بينهما على النظرات والهمسات أو اللقاء المختلس تحت الخماثل أو خلف جماعات الشجر ، وستر عليهما تعارفهما ترائي أطراف الحديقة وعدم إمكان تسرب الشك إلى قلب من يراها معاً ، فعماشاً زمنياً سعيداً في غفلة من الناس والدهر حتى وقع ما قضى عليه بالخروج من جنته مقهوراً مغلوباً على أمره : كانا جالسين على الأريكة التي قبلها عليها لأول مرة وقد انساق الحديث إلى المستقبل ، قال يوسف :

— هل يمكن أن تنسيني فيما يقبل من الأيام ؟
فنظرت إليه نظرة إنكار وقالت :

— أنا ... مستحيل ...
— ولكنني أخشى أن يبدد أهلك أحلامنا ...
فتنهار آمالي وأفقد سعادتي

فردت عليه وقد كشرت عن أنفة وكبرياء :

— أبدأ ... لن أسمع بهذا ما حيت ... فصمت يوسف لحظة يتمتع نفسه بحمامها الفاتن ولكن لم يطل به الصمت السعيد لأنه تذكر العقبات الأوبد التي تسد عليه الطريق ، فتهد وقال وكأنما يحدث نفسه :

— ترى هل أبلغ أمنيته يوماً فأزوج منك ؟
وكانت تلك المرة الأولى التي ينطق فيها بتلك الكلمة الخطيرة ، ولذا أنكرتها أذنه وخيل إليه أن قائلها غريب عنه ؛ أما سوسن فقد ارتجفت شفتاها عن اضطراب وتدفق الدم إلى وجهها فصار كالجان ... ولم يكن يطمع أن يجيبه بأكثر من هذا ... وبعد هنيهة ذهبت في التفكير والأحلام فسألته :

« أي مستقبل تبتني ... ! » . فأجاب : « أنا ما زلت في مستهل الطريق ومبتدأ العمر ... وكل

هل يمكن أن تشكوه سوسن إلى أبيها ؟ كم كان أعمى مجنوناً ؛ كيف آتته الجراءة ؛ يا ويحه فقد خدع فظن عطفها محبة وعبها وداً ، وإذا فضحته عند أبيها فإذا يكون مصيره بل ماذا يكون مصير والده نفسه ؟ ولكن رجع أبوه إلى البيت كمادته وصرت أيام دون أن يوجه إليه أي تهمة أو يتعرض للفصل من عمله ، فهدأت نفس يوسف وعادته المواطف التي غاصت في قلبه لحظات خوفاً وذعراً ، ونازعه الشوق إلى الوجه الجميل وصاحبته ، ورأى أن ما يمكن أن يصيبه من ذهابه لن يعدل ما هو فيه من ألم الشوق مهما ساء وغلا . فحمل نفسه إلى القصر بعد احتجابه تلك الأيام وانتظر ونفسه حيرى ، وجاءته الصبية تسمى ، ولما وقع نظرها عليه بدا على خيالها الغضب فتقدمت منه خطوات ووقفت متحدية ، فأغضى أمام نظراتها خجلاً وألماً ، وانتظر في يأس الكلمة القاضية ، واشتد عليه الحال فقال بصوت تمرقه نبرات الألم :

كانت غلطة شنيعة ... هل أنت غاضبة ؟ فأجابته بلهجة حادة : « طبعاً ... ماذا كنت تنتظر ؟ »

— اعني عني ...
— لن أعفو ...

وهنا رفع رأسه بحركة سريعة وقد تبدل وجهه من حال إلى حال ، لأنه خيل إليه أنها فاهت بالمباراة الأخيرة بلهجة رقيقة وهي تغالب ضحكة ، فلما وقع نظره عليها وجدها تبسم إليه بشعر فتان غفور رحيم ...

وهم أن يتقدم منها خطوة ففترت منه هاربة ؛ كانت تلك الأيام أسعد أيام حياته على الإطلاق ، لا يذكر أنه سعد سعادتها من قبل ولا من بعد رغم تنوع الظروف واطراد التجارب . وبعد تلك

ثم بلعت ريقها وقالت بصوت خافت : « نعم ... »
وفرت هاربة من الواقفين ومن عيني يوسف خاصة
بعد هذا شد الرجل على يد ابنه وساقه أمامه ..
وقد هم يوسف أن يتكلم فأحس إلا بيه أبيه
تصيب مؤخر رأسه فيقع على وجهه بين الإعياء
الشديد والاعياء .. وهكذا كان ختام حديث الحب
والمستقبل ... وهكذا كانت نهاية مغامرته في قصر
سليم بك عاصر

لقد بدا له تصرفها أول الأمر غدرًا وخيانة .
ولكنه لم يلبث أن انتحل لها الأعذار ... وما كان
الغضب ولا المودة ولا الاعتقاد في غدرها بمستطاعة
أن ترحل الحب عن قلبه قيد أنملة ، فانزوى في حجرته
يعانى الحرمان والألم واليأس الميت شهراً بعد شهر
وعاماً بعد عام ، حقاً لقد كان حباً عجيباً رهيباً ...
وإنه لن ينسى ما عاش تلك الأعوام التي شهدت أيامها
وساعاتها ودقائقها معاناته الألم الشديد واليأس والحب
الخائب ، وفي بعض ساعات اليأس والشوق رسم
صورتها على حائط حجرته التي شهدت آلامه جميعها
وكتب إلى جانبها تلك الأبيات الشعرية وجعل
يردها كل حين على يده ويتعزى

وما كان يستطيع أن يتصور أنه ينسى ...
ولكن للأيام أحكامها وقد تسرب النسيان إلى
طيات قلبه نقطة نقطة حتى برى وشفي وعفا من
قلبه الهوى . ثم تقدم به العمر ووظف ثم تزوج
وخلف وضايق بالحب ...

وكم سخر من حياته ومن دنياه ... إلا ذكرى
واحدة إذا زارته انبسطت أسارير وجهه ولاحت
في عينيه الأحلام ... وبعد فحسبه أن تذكر ... لأن
التذكر للقلب كالخفر في باطن الأرض يفجر الماء
فيضاً غزيراً ...
بجيب محفوظ

صعب يسير مع الجهد والعزيمة الصادقة ، فعليك
الاختيار وعلى الاجتهاد ... » ففكرت لحظة تختار
زوج المستقبل ما تحب من المهن والأعمال ثم قالت :
« ألا تستطيع أن تكون من الأعيان ؟ إننى أسمعهم
دائماً يقولون عن بابا إنه من الأعيان فلم لا تكون
مثله ... ؟

— من الأعيان ... ولكنها ليست وظيفة ولا
مهنة ... الوظائف التي أعنى مثل المهندس والمدرس
والضابط والطبيب ...

وعادت مرة أخرى إلى التفكير والمفاضلة ،
وكانت عيناه لا تفارقان وجهها ، فرآه تضيق عيناه
وتنفرج شفثاه من الذهاب مع التفكير ، ففتنه
منظره وأنساه نفسه كما فعل به في المرة الأولى ،
فاقترب منها وهوى برأسه يريد أن ينال منها قبلة ...
ولكنه أحس بغتة ... نعم بغتة بشيء يصيب رأسه
وسمع صوتاً يصرخ به :

— أتجرؤ يا كاب .. والتفت مذعوراً فرأى أبا
الآنسة الأصغر ينال عليه لكمة وضرباً . وأراد دفع
السوء عن نفسه فأمسك بتلابيبه ، فتضاعف غضب
الأخ وضاعف له الضرب ... ووقفت على بعد
قريب سوسن تشاهد ما يقع أمامها بعينين محمقتين
ووجه شاحب كوجوه المرضى . ولا يدري كيف نعى
الحبر إلى أبيه فجاء يجرى مضطرباً وأمسك بيوسف
بمبدأ عن الصبي الآخر وسأله بصوت ملؤه الاحترام
« لماذا تجرؤ عليه يا سيدى ؟ ماذا فعل ... ؟ » فأجابه
بصوت عال مغيظ : « رأيت أنه يحاول أن يقتصب ...
قبلة من سوسن بالقوة ... » فصرخ الرجل :
« يا للفظاعة ... هل حقاً هذا يا سيدتى ؟ » وكانت
سوسن ما تزال ملازمة لحالة المباغلة التي استولت
عليها ... فلما سمعت سؤال الرجل اضطربت ثانية ...